مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

مُلاحظاتٌ عَنْ:
واقع البحث العلمي الإسلامي ومشكلاته

الدكتور: محمد مصطفى بالحاج
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

أمانة البحث في قضايا الفكر الإسلامي ومشكلات المسلم المعاصرة هي جزء من تلك الأمانة التي استثقلتها السموات والأرض والجبال وأبين حملها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وهي شطر مهمة الجهاد التي فُرضت على هذه الأمة، كما أنها جانب من جوانب الدعوة إلى دين الله ونشر هديه في مختلف المجتمعات، يقول المفكر الإسلامي الكبير وحيد الدين خان: (إن هذه الأمة تقترف اليوم جريمة كتمان الحق فعلاً، إن لم يكن إرادة، وعليها أن تعرف أن الله لا يقبل من أمة أمينةٍ على رسالته عملاً ما إن كانت تكتم الحق)[1].

من هنا فإن البحث العلمي أمانة في أعناق الأفراد والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية، في شقيْها العلمي والتمويلي، وإن المتأمل فيما هو مرصود من أموال للبحث العلمي عامة والإسلامي خاصة، ليهوله الأمر ويقتله الحزن، أمام الكنوز النفطية والمعدنية المختلفة التي حبا الله بها الوطن العربي وكثيراً من البلاد

(1) الإسلام والعصر الحديث - وحيد الدين خان - دار النفائس ط 3 1986 ص 72.

الإسلامية، وكيف تنفق وفيما تسخّر. . وليس للبحث العلمي الجاد منها إلا النزر القليل.

إن الندوات والمؤتمرات وحدها التي ظلت وستظل تحلم بوحدة ثقافية ـ على الأقل ـ تحصر كفاءات العالم الإسلامي العلمية وتجمع شملها وتصنف مجالاتها وقدراتها في التأليف والتحقيق والبحث والتجريب والتعريب والترجمة، لن نستطيع صنع شيء ما لم يوجد القرار السياسي الذي إن لم يسهم بنفسه مباشرة، يدع البحثَ العلميَ والمشتغلين به أفراداً ومؤسسات في سبيلهم يتحركون بحرية كاملة، ويرفع عنهم الحظر والعرقلة والتضييق.

أما أهمية توحيد الجهود وتنظيمها ورسم مخططات شاملة دقيقة ذات آماد قريبة وبعيدة فهي مسألة لا يختلف فيها اثنان وليست في حاجة إلى البرهنة على جدواها أو الاقتناع بقيمتها وضرورتها، لا سيما في عالم اليوم المتطور، عالم التخطيط والبرمجة والتقنية والأجهزة الطابعة والناسخة والخازنة والقارئة والمترجمة والمبرقة.

وما لم ننتقل عملياً من مرحلة الأماني والشعارات والتذبذب بين النظريات الفكرية المستوردة وما لم ننشىء جيلاً خالياً من عُقد المدنية والحضارة، ومن أمراض الشخصية المسلمة الحاضرة، وما لم نقدس الوقت والإخلاص في العمل، ونبدأ من حيث انتهى غيرنا. . ما لم نفعل ذلك ونتعلم من تجارب الأمم كاليابان مثلاً وكيف بلغت تألقها الحالي ونحاول أن نحتذي حذوها، فسنظل نحرث في البحر، وننفخ في الهواء.

إن مبدأ توحيد الجهود وتنظيم العمل وتحديد الأولويات والتنفيذ المبرمج والقائم على دراسات استراتيجية محكمة، وهو ما يفتقده البحث العلمي الإسلامي، نجده مطبّقاً للأسف في مجالات الاستشراق والتبشير، وفي دوائر الصراع العالمي المعقد. نجد القوى الدولية العلنية والسرية تنتهج أرقى الأساليب لتوحيد كلمتها وتنسيق برامجها وابتكار الوسائل المشروعة وغير المشروعة للمزاحمة والسيطرة المادية والإعلامية. ونقرأ عن مئات من المؤسسات والجمعيات الرسمية

وغير الرسمية التي تخصصت فيها يسمى بعلم المستقبل، معتمدة في أبحاثها أحدث الأجهزة والوسائل ومختلف العلوم السياسية والاقتصادية والنفسية والأنثروبولوجية.. لتضع نتائجها ثماراً سائغة أمام حكوماتها، تستعين بها في رسم سياساتها واتخاذ مواقفها المختلفة.

إن وطننا العربي، بل الإسلامي كله، هو بؤرة دراسات دولية علنية وسرية... دراسات فيها يفكر وفيها يملك وكيف يتصرف... دراسات في تراثه العريق... وفي حاضره المبعثر... وفيها يتوقف أن يئول إليه.

فهل فكرنا في شيء من هذه الحقائق؟

لقد أفلح الغزو الفكري بخاصة، والثقافي الحضاري بعامة، في أن يعدّد انتماءاتنا العقائدية وأن يصبغ عقليات أكثر الفئات العلمية لدينا بصفة علمانية، وأن يوجد أنظمة تعليمية وإعلامية في ظاهرها التقدمية والاستقلال والتطور، وفي باطنها غربة الانتماء، والانفصام عن الجوهر والأصالة والهوية الحضارية الإسلامية بكل أبعادها، إن الاستعمار الباطني الذي يكبل عقول نسبة كبيرة من الكفاءات العلمية والثقافية، ويطمس على قلوبها... حتى غدت مفاهيمها وعلاقتها بالله ورثة مشوهة، أو مبتوتة رافضة.. وربما غدت ثائرة معادية.

إذن لا مناص من التحرك السريع لإنقاذ الفكر الإسلامي وتنوير المسالك أمامه وسط هذه الأوضاع. لا مناص من إيجاد وحدة ثقافية علمية تكون الدليل والموجّه والطبيب. ولنقف أولاً على واقع البحث العلمي بعامة والإسلامي بخاصة، ثم نستعرض مشكلاته وما نتج عنها في المستويين القطري والإسلامي العام، دون تخصيص لبلدٍ ما أو نظام معين أو منطقة محددة.

من أبرز العوائق التي تواجه الباحث عند محاولته تشخيص واقع البحث العلمي الإسلامي، قلةُ - إن لم يكن انعدام - التقارير والإحصائيات والدراسات الوصفية والتحليلية، (على الأقل في حدود إمكانيات هذه الملاحظات)، ولكن مع ذلك فيمكنني رصد عدد من النقاط نتيجة المطالعات الحرة ومتابعة الأحداث. وأهم تلك النقاط:

1 ـ غياب الاهتمام الحقيقي الملموس بالبحث العلمي، بالصورة التي يتطلبها العصر وتستلزمها مشكلات مجتمعاتنا الإسلامية.

2 ـ غياب الضمانات الحقيقية للباحثين، وعدم توفر المناخ الملائم للبحث.

3 ـ اضطراب التنظيمات الإدارية والتقاليد الأكاديمية، وانعدام الاستقرار والثبات فيها.

4 ـ عدم تحديد أولويات البحث العلمي، أو تحديدها بصورة إلزامية مفروضة لا تقنع الباحث، أو لا تشجعه على الاقتراب منها والعمل فيها.

5 ـ وجود صور من الريبة أحياناً في قدرات الباحثين أو في حسن نواياهم.. يترتب عليه غياب العناصر ذوي الكفاءة العالية.

6 ـ عرقلة أو تضييق فرص التفتح على الأجواء العلمية في الخارج عن طريق المشاركة في الندوات والمؤتمرات.. وأحياناً قفل هذا الباب.

7 ـ التهاون في متابعة المنشورات العلمية من كتب ودوريات وتوريدها بانتظام، بمختلف اللغات العالمية وفي جميع فروع المعارف الإنسانية.

8 ـ قفل باب الإيفاد إلى الخارج للدراسات العليا في الجامعات العالمية ذات الشهرة الذائعة.

9 ـ عدم توفير المكتبات المتكاملة، والوسائل اللازمة للبحث من مكاتب وأجهزة ووسائل اتصال حديثة مختلفة.

10 ـ التأخر الكبير عن ركب الحياة العلمية في العالم بسبب ركود الترجمة وعدم تنظيمها، وبسبب التهوين من شأن اللغات الأجنبية وإهمالها.

11 ـ انتشار ظواهر السرقات العلمية وفوضى الرسائل العلمية وتكرار الموضوعات والتحقيقات في التراث.

12 ـ انشغال أكثر الباحثين في مشاغل حياتية هامشية، بسبب انعدام الخدمات العامة التي توفر الوقت والجهد والراحة النفسية للباحث.

13 ـ وجود عوائق كثيرة ومتنوعة في سبيل النشر والتوزيع.

هذه فيما يحضرني هي أهم مشكلات الباحث عامة، والباحث المسلم الملتزم خاصة في الإطار القطري من العالم الإسلامي، أما مشكلاته على المستوى القومي أو الإسلامي العالمي، فهي أكثر تعقيداً، ولعل أهمها:

1 ـ لم يتحقق حتى الآن وجود هيئة أو مؤسسة عالمية استطاعت حصر الكفاءات والدرجات العلمية وتصنيفها وتسخيرها في مشروعات بحثية استراتيجية.

2 ـ لم يوجد مصرف أو مصارف للمعلومات بمختلف أنواعها، تكون أرصدة منظمة مخزنة تحت تصرف الباحثين.

3 ـ عدم وجود رؤية علمية موضوعية، بعيداً عن أهواء السياسة وتعقيداتها وعراقيلها، تعمل على توحيد البرامج البحثية التي تخدم شؤون الإسلام والمسلمين.

4 ـ غياب الوعي الإيجابي عند معظم الحكومات بقيمة هذه الأمور وأهميتها القصوى وسط المعترك الحضاري والتحديات الأجنبية وَتَرَبُّص قوى الشر والبغي والإفساد بأجيال هذه الأمة لتفتيتها والقضاء عليها.

5 ـ عدم رصد ميزانيات كافية لتحقيق الوحدة الثقافية العلمية وتسيير شؤونها بنجاح.

6 ـ اصطراع المؤسسات الإسلامية القائمة وتنافسها فيما بينها بفعل التوجهات السياسية والإعلامية، والنتيجة لذلك تبدد الطاقات وفشل البرامج وتمكين الخصوم من الغلبة.

ولقد ترتبت على تلك المشكلات القطرية والدولية نتائج كثيرة، ولعل من أهمها:

1 ـ فوضى الحركة البحثية القائمة الآن في الجامعات وفي سائر المؤسسات العلمية الأخرى، على المستويين الفردي والجماعي. وهذا يكلف الأمة ضياعاً

كبيراً في الوقت والأموال والجهد ويؤخرها كثيراً عن أهدافها الكبرى.

2 ـ هبوط مستويات كثير من الدراسات، واتسام بعضها بالضحالة والتسرع وافتقاد المنهجية المطلوبة، وتحوّل الدراسات العليا في معظمها إلى أداة لنيل الدرجة العلمية، وليس لتحقيق إضافة جادة في البناء العلمي الملتزم الفعال.

3 ـ إهمال بحث الأولويات المُلحَّة مما يعيشه المجتمع الإسلامي من مشكلات، وما يجابهه من تحديات معاصرة ومستقبلية.

4 ـ انصراف كثير من القادرين على البحث العلمي الرصين واعتزالهم إياه بسبب المشكلات التي تقدم الحديث عنها.

5 ـ انشغال بعض الباحثين بموضوعات هامشية لا تخدم قضية ذات بال، بل ربما أثارت فتناً فكرية أو اجتماعية، كالبحث في مسائل: المتعة، والقبض، والإرسال، وإعفاء اللحية، وزيارة الأولياء... الخ.

6 ـ فشو ظاهرة هجرة الأدمغة (الكفاءات العلمية الممتازة) إلى بلدان العالم المتقدم، هروباً من المشكلات التي تكبل البحث العلمي أو تصرفَ عنه، إلى حيثما توجد كل وسائل الاستقرار النفسي والديني والاقتصادي والعلمي.

7 ـ ما يترتب على الظاهرة المذكورة آنفاً من آثار وخيمة في أوطاننا وما يستفيده خصومنا من عطاء تلك العبقريات المهاجرة في مختلف فروع المعرفة والعلوم.

8 ـ انسحاب النقد البناء الصريح، والتوجيه الملتزم الصحيح.. إيثاراً للسلامة وعدم الاصطدام بالسلطة أو الرقابة المفروضة. ولعل أبرز نتيجة في محيط البحث العلمي الإسلامي هي تعطيل الاجتهاد وتوجيه الإفتاء، الأمر الذي أدى إلى وقوع الناس في الحرام الظاهر والخفي، ثم يكون اعتيادهم واستمراؤهم لذلك في غير ما حرج أو مبالاة أو حتى مجرد التفكير في حساب الله.

9 ـ بروز أفلام في مجال البحث الإسلامي ذات مآرب مصلحية متنوعة، تشغل مكان المنسجمين ولا تمانع في الانصياع لما يطلب منها من أفكار أو

مواقف، حتى لقد وصل الأمر ببعضهم إلى أن يبارك مهادنة الصهاينة وموالاتهم ويدبج الفتاوى ويفصّلها على قدر المطلوب.

10 ـ فراغ كثير من الساحات العلمية وصفاؤها لأصحاب الأقلام المريضة يهاجمون الإسلام وينالون من أعلامه ويسيئون إلى تاريخنا أو يبشرون بسواه من المذاهب والمبادىء.. عن طريق الكتاب والمجلة والإعلام، ولا يجدون من يجرأ على التصدي لهم وتفنيد مزاعمهم وكشف مصادر سمومهم وتبصير الأمة بمكرهم.

بعد هذا الاستعراض المركّز لواقع البحث العلمي في الإسلاميات والتعرف على مشكلاته وآثارها الجزئية والعامة، نحتاج إلى أن نقف قليلاً مع الباحث المسلم نفسه، لكونه حجر الزاوية في العملية البحثية، وهو نقطة الانطلاق. ونسأل أولاً: من هو الباحث المسلم الحق؟

هل هو ذلك الذي ينغلق على نفسه داخل إطار الموروث الثقافي ويصر على أن يتحنط في مظهره وملبسه، ويفتش عن صغائر الأمور في أداء الشعائر ليخالف الناس فيها ويصادِمَهم بها... أو يشتط فيقذف الآخرين بالزندقة أو بالكفر؟ ثم يُحسب على الإسلام ظلماً، ويغدو أضحوكة العلمانيين والماركسيين وأمثالهم؟

أو: هل هو ذلك المسلم الذي يغمض عينيه ويسدّ أذنيه عما حوله في مختلف المجتمعات الأجنبية من علم وتقدم.. ويرفض حتى الاعتراف بأهمية ـ أو قل بوضوح ـ خطورة النشاط الاستشراقي والتبشيري، والماركسي والصهيوني لهدم الديانات ونسف أخلاق الشعوب وتمزيقها، وتحويلها إلى قطعان لا تفكر إلا في البطن والجنس.

أو: هل الباحث المسلم الحق هو من يفلسف الحقائق الثابتة الناصعة على هواه ويتكلف فهماً خاصاً للنصوص تأباه حقائق اللغة، ويستصغر جهود السلف أو يسفههم دون دليل وبرهان، ويكابر فلا يقتنع برأي لسواه؟

هل هو ذلك الذي يجتر آراء غيره، ويدور في حلقة مفرغة، في محيط الموروث، مضموناً وأسلوباً، ويجهل أو يتجاهل القضايا والمشكلات التي تجدّ كلَ

يوم في الاقتصاد والإدارة والحكم والطب والاجتماع، ويترك الناس مضطربين في لبس وحيرة، لا يعرفون حكم الله في شيء منها؟

إن عالم اليوم خضم محيط لا يستطيع السباحة في لججهِ إلا الماهر الفطن، ابن العصر، المزوّد بكل أسلحته. وإن ما يترصد الإسلام والمسلمين من مؤامرات ودسائس، خفيّة ومعلنة ليفرض علينا تكثيف الجهود في مجالات البحث العلمي الإسلامي، لإعداد البرامج العلمية للدفاع وللجدال ولدحض الأكاذيب، ولإطلاع الرأي العالمي على معنى الإسلام وحقائقه وصلاحيته وتفرده لحلِ كل مشكلات الفرد والجماعة في كل زمان ومكان. ويكفينا هنا ذلك المثل الفذ المتمثل في تلك الشخصية العالمية الداعية أحمد ديدات الذي استطاع بتفتحه الفكري وموضوعيته في الحوار، أن يهز العالم المسيحي ويتحدى كبار علماء النصارى في صميم معتقداتهم المتوارثة المنحرفة، وأن يُبرز لهم الإسلام ديناً شامخاً محفوظاً من كل تزوير أو تحريف.

إن أمم الأرض، لا سيما الأوروبية، في لهفة وتحرّق للمعرفة الصحيحة التي تقدم بموضوعية وذكاء ولباقة، ولو وجدت هيئة إسلامية عالمية تحسن تقديم الإسلام الصحيح عن طريق أجهزة الإعلام وبتوثيق العلاقات بالجامعات والمؤسسات العلمية في أوروبا.. لاهتدى آلاف تلو آلاف إلى نور الإسلام وطريقه المستقيم.

إن الأمانة جد ثقيلة، ولكي يوجد الباحث المسلم الكفء، لا بد من إعداده منذ طفولته المبكرة إعداداً إسلامياً متكاملاً يحقق إسلاميته ومعاصرته وكفاءته لحمل تلك الأمانة. ولا شك أن ذلك يقتضي تحقيق وحدة تعليمية تربوية ثقافية على مستوى العالم الإسلامي، تُشخص الأدواء وتضع الدواء وتشرف على التنفيذ[2]. يقول المرحوم مالك بن نبي في محاضرته القيمة (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين): «إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس

---

(2) راجع بحث: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي: واقعها وعلاجها للدكتور محمد المبارك ـ دار الفكر بيروت. لا.ت.

المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة.. فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربانية الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله...)[3].

إذن نحن في حاجة ماسة حقاً إلى إعداد الباحث المسلم الحق، ثم إلى إيجاد هيئة عالمية إسلامية حرة، خارج نطاق الأنظمة والسياسات الإقليمية، تضم شمل الباحثين وتضع لهم البرامج وتذلّل لهم الصعاب وتمنحهم نوعاً من الحصانة القانونية الدولية.

ونبدأ أولاً بتحديد صفات الباحث، مع التنبيه إلى ما يشيع بين الباحثين لدينا من عيوب في تجاربهم البحثية.

يقسم الدارسون المحدَثون عادةً صفات الباحث إلى أنواع ثلاثة: ذاتية، وموضوعية، وأسلوبية.

وتتركز الصفات الذاتية في الاستعداد العقلي والمعرفي، ونضجِ الأدوات الأساسية في شخصية الباحث، من نفاذ في الرؤية ودقة في الفهم ومهارة في التحليل والتركيب وتفنيد الآراء أو الانتصار لها. وهي أمور لا يمكن تكلّفها أو إكسابها قسراً لمن لا يملكها. وهي أيضاً أدوات لا يمكن الاستفادة منها إلا بعد نضج واستواء من خلال الاطلاع الواسع وتجريب ألوان الكتابة الإبداعية أولاً ثم التدرج نحو الكتابة العلمية الموضوعية.

أما الجانب الموضوعي من شخصية الباحث فهو تلك الصفات التي حث على الالتزام بها القرآن الكريم والهدي النبوي وما استخلصه أعلام السلف الصالح ممن عُنوا في طلب العلم والرحلة من أجله، ثم عانوا تجارب البحث فيه والتأليف، على ضوء المعايير العلمية التي عرفوها في نقد الرواية وتمحيص الرواة ومنهج التأليف والتحقيق.

---

(3) دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين ـ مالك بن نبي الدار العلمية ـ بيروت ط 1392/1 هـ ص 28-29.

هذا الجانب الموضوعي يشمل عناصر كثيرة منها: النزاهة والأمانة والدقة والحيدة واحترام آراء الآخرين، والجدال بالمنطق والانتصار للحق دون خشية العواقب، وابتغاء وجه الله في كل قول أو رأي. كل ذلك ضمن إطار الإسلام بمعاييره الشرعية والأخلاقية وأسسه الجوهرية في التوحيد والغيبيات وقواعد الأحكام وحكمة التشريع.

إن معنى (الموضوعية) نسبي. وهذه النسبية رهن لنوع الثقافة والتنشئة والانتماء الفكري والتكون النفسي عند الباحث. لذلك نجد من يسوّي بين أبحاث العلوم التجريبية وأبحاث الشريعة والأخلاق وما وراء الطبيعة (الغيبيات)، حتى ليبلغ الشطط ببعضهم، فلا يعترف بميزة ما تخص الوحي السماوي، واضعاً إياه محل النظر والانتقاد والرفض. وأذكر أن باحثاً مسلماً من تركيا كان يدرس موضوع الطلاق في الشريعة الإسلامية تحت إشراف مستشرق هولندي مشهور اضطره إلى الانسياق في مزالق خطيرة، بسبب أن ذلك المستشرق شأن غيره من المستشرقين طالبه تحت دعوى الموضوعية بأن يناقش قوله تعالى ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ أو قوله تعالى ﴿**الرجال قوّامون على النساء**﴾ ويضعه محك النقد البشري، ثم يكون رفضه أو قبوله على هذا الأساس.

أما الجانب الثالث وهو الأسلوب فغني عن البيان أنه جانب مهم جداً، يرتفع بالمضمون إلى أعلى الدرجات، أو يهوي به إلى أحط الدركات، وهو أمر يعود إلى استعداد شخصي تصقله التجارب والقراءات المستمرة المنتقاة من أرفع الأساليب، وفي مقدمتها القرآن الكريم، كما يعود نسبياً إلى مدى الصفاء النفسي والاستواء المزاجي للباحث. ولقد فعلت لغة الإعلام والصحافة والترجمات الركيكة فعلها في إفساد أقلام كثير من الباحثين، فانحطت أساليبهم وطغت عليها الهلهلة والتفكك والركاكة والمعاظلة وما يمكن تسميته بالطفيليات الأسلوبية من أخطاء دقيقة متنوعة. ولقد شاعت أنماط من التعبيرات والاشتقاقات، ينفر منها الذوق وتشمئز النفس لا سيما في كتابات مرضى الاتجاهات الفكرية المستوردة.

إذن فللباحث أدوات لا بد أن تستكمل وأن تنضج، كما أن عليه تبعات ثقال، لا يجوز التفريط فيها أو التهوين من شأنها. ومهما أوتي الباحث من علم

وحجج في تخصصه الدقيق، فهو في حاجة إلى أن يكون عصرياً. وإذا كانت هذه المرحلة التي نعيشها من تاريخ الفكر البشري هي (عصر التحليل The age of analysis)[4] كما يسميها الكاتب الشهير مورتن وايت Morton White، فإننا نتفق مع المفكر المسلم الكبير وحيد الدين خان في قوله «إن الإثبات التاريخي والتحليلي والتجريبي هو المطلوب المقبول اليوم، وفي الزمن القديم كان الإنسان، كمناظر ومبلّغ، يدافع عن وجهة نظره كمحام بدون تحفظ، أما اليوم فإن الفحص الموضوعي للحقائق Objective Survey هو الأسلوب المعياري»[5].

ويعلل المفكر المذكور سبب إدبار شبابنا المعاصر عن الكتابات الإسلامية وزهدهم فيها، وتعلقهم بأبحاث الاستشراق، فيقول: «وقد نُشرت لدينا كتب لا تحصى خلال المائة سنة الأخيرة. وبعض هذه الكتب قيّمة، ولكن فائدتها في العصر الحديث جزئية، لأنها أمثلة للخطب المنثورة. إن الكتابات بالأسلوب العلمي تكاد تكون منعدمة لدينا. وهذا هو السبب في أن شبابنا المثقف يتجه لقراءة كتب المستشرقين لفهم الإسلام، مهما كانت خاطئة، وذلك لأنها تحمل المنهج والأسلوب الحديث...»[6].

وبغض النظر عما في هذا الرأي من إطلاق وتعميم، فهو يؤكد حقيقة حية نلمسها في كثير من النتاج البحثي الذي يقدم لنيل الدرجات العلمية العليا، أو الذي تكتبه أقلام أخرى.

إن الأخطاء والمآخذ المنهجية الملحوظة في مجالات البحث الإسلامي المعاصرة كثيرة بارزة، وتأتي تلك الظاهرة التي أشار إليها المفكر المذكور على رأس النتائج التي تحسب على المنهجية الإسلامية وتسيء إلى الإسلام نفسه بسبب سوء

---

(4) راجع هذا الكتاب في سلسلة (Mentor Book) وهي تشمل: (عصر العقيدة) عن فلاسفة العصور الوسطى، ثم (عصر الغامرة) عن فلاسفة عصر النهضة، ثم (عصر السببية) عن فلاسفة القرن السابع عشر، ثم (عصر التنوير) القرن الثامن عشر، ثم (عصر الأيديولوجية) القرن التاسع عشر، وأخيراً (عصر التدليل) عن القرن العشرين.

(5) الإسلام والعصر الحديث (م.س) ص 51.

(6) المصدر نفسه ص 51.

تقديمه والبحث فيه، ونحن من خلال القراءات الواسعة وممارسة الإشراف الأكاديمي في الدراسات العليا نستطيع رصد تلك الأخطاء والمآخذ، وأبرزها: الاستطراد والتكرار والحشو والتعميم، والخطابية في التفكير، والإنشائية في التعبير، والمبالغات في الوصف، والجزم في الأحكام، والتعجل في التناول، والسطحية في التحليل، وافتقاد الوحدة العضوية والتسلسل في البناء، والاعتماد على المصادر الثانوية، وتأثير الانتماءات الفكرية والمذهبية الضيقة، وعدم استقراء ما كتب في الموضوع، وإساءة استخدام النصوص، واختفاء شخصية الباحث.. الخ. ولو سمحنا لأنفسنا باستعراض أمثلة على ذلك لاحتجنا إلى بحث مستفيض لا يناسب هذا المقام. ونظرة في كثير من الندوات والمؤتمرات الإسلامية ـ على سبيل المثال ـ تقفنا على أمثلة حية لتلك العيوب. بل أضف إليها عيوباً أخرى هي الجنوح عن الموضوع الدقيق لذلك المؤتمر أو لتلك الندوة، فإذا بنسبة كبيرة مما قدم من أبحاث أو ورقات علمية هي خارج الموضوع ولا علاقة لها به البتة.

إذا توفر لدينا هذا الباحث، واستطاع التخلص من كل تلك المآخذ والعيوب، صار لزاماً أن يجد جهة تضمه إلى أمثاله في صورة هيئات أو مراكز بحثية مستقلة، أو تابعة للمؤسسات العلمية العامة، ثم الانتهاء إلى هيئة عليا على مستوى العالم الإسلامي، تتولى ـ كما قدمت ـ حصر الكفاءات، وتخزين المعلومات، ووضع الأولويات، ورصد الميزانيات، وتوزيع المشروعات، والإشراف على متابعة الأبحاث المطروحة وسبل إخراجها إلى مجال التطبيق والتنفيذ، ثم الطباعة والنشر والتوزيع.

لقد أنشأ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول، والتابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي «إرشيفاً» خاصاً بمختلف المؤسسات الثقافية على المستوى العالمي، وأصدر عام 1981 م دليلاً ذا صبغة تجريبية بعنوان «دليل المؤسسات الثقافية الإسلامية» ثم أصدر عام 1982 م «دليل عناوين المؤسسات الثقافية في الدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي» ثم صدر عام 1984 م «الدليل الدولي للمؤسسات الإسلامية». وهذا يختلف شكلاً ومضموناً عن الدليلين السابقين، ويحتوي على (3579) مؤسسة ثقافية، موزعة على (106) بلدان، وهي

مؤسسات تهتم بصفة مباشرة أو غير مباشرة بمختلف ميادين الثقافة الإسلامية، سواء كانت مؤسسات رسمية أو شبه رسمية أو خاصة، وقد استثنيت المؤسسات ذات الصبغة العلمية (العلوم البحثية والتجريبية والتقنية والاقتصادية) والمؤسسات المشابهة لها(7).

إن هذا المجهود العلمي هو خطوة مهمة على طريق الوحدة العلمية والثقافية للعالم الإسلامي. ولقد أجمع الذين تناولوا واقع الإسلام والمسلمين بعامة، وما عليه البحث الإسلامي بخاصة، على «ضرورة قيام هيئة دولية للبحث والتصور والتنسيق، تكون أهميتها ودورها على مستوى فعاليتها وهيبتها»(8). هذه الهيئة الإسلامية العالمية يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن أية تيارات سياسية أو دعائية ـ كما كررنا التأكيد ـ ويتكون أعضاؤها من خيرة الباحثين الإسلاميين، في مختلف المجالات بصرف النظر عن جنسياتهم، في حدود مائة عضو ـ على حد اقتراح د. زقزوق ـ يتوزعون إلى مجموعات عمل، يتوفر كل فريق منها على دراسة قطاع معين من قطاعات الفكر الإسلامي، كما تخطط هذه الصفوة للبحوث الإسلامية في جامعات العالم الإسلامي، فتصل الماضي بالحاضر، وتجدد شباب تراثنا، وتجنده لخدمة الحياة الإسلامية المتجددة(9).

هذه الهيئة العالمية المقترحة يمكنها القيام بالمسؤوليات الاستراتيجية الآتية:

1 ـ إجراء مسح شامل لكل الكفاءات العلمية في فروع المعارف والعلوم.

2 ـ حصر المعلومات الدقيقة عن البلاد الإسلامية جميعاً من حيث السكان وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتربوية والتعليمية ومن حيث مصادر الطاقة والثروات الطبيعية وأنواع الانتاج.

---

(7) أعد هذا الدليل باللغة الانجليزية: آجار طانلاق وأحمد العجيمي. اسطنبول عام 1984/1405.

(8) الإسلام في مفترق الطرق ـ للدكتور أحمد عروة، نقله عن الفرنسية الدكتور عثمان أمين ـ الجزائر 1975 ص 158.

(9) أنظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري للدكتور محمود حمدي زقزوق ـ قطر 1404 هـ ص 139-140.

3 ـ دراسة واقع العالم الإسلامي الفكري والحضاري، وتحديد أولويات البحث العلمي الأكثر إلحاحاً، ثم توزيعها على الجامعات والمؤسسات العلمية لبحثها والتناقش على إيجاد أنجع الحلول وأشملها.

4 ـ تخصيص لجنة عليا للقضايا التشريعية وفتح باب الاجتهاد لحل مشكلات المسلمين بأنواعها المختلفة، وقد اقترح د. عماد الدين خليل لذلك برنامجاً يمكن الاستعانة به، ويتحدد في الآتي:

(أ) التخطيط لفهرسة موسوعية دقيقة وشاملة لمعطياتنا الفقهية (التاريخية)، حسب الحقول والأبواب والمواضيع.

(ب) تحقيق الخطوات نفسها بصدد المعطيات الفكرية الإسلامية الحديثة والمعاصرة بعامة.

(جـ) تحقيق التواصل بين الموروث والمعاصر من خلال مبادىء وصيغ وشروط محددة.

(د) تصميم خارطة معاصرة للتصور الفقهي الاجتهادي.

(هـ) حصر كل الطاقات، وتوزيع المهمات[10].

5 ـ إعداد موسوعة للرد على المستشرقين، وهو أمل طالما راود كثيراً من المؤتمرات الإسلامية ودعا إليه كثيرون. ولقد عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في نهاية عام 1979 م ندوة لمناقشة مشروع هذه الموسوعة، وفصّل التقرير الختامي المنهج العلمي الواجب اتباعه في إعدادها. يقول د. زقزوق مقرر الندوة المذكورة: «وتم تسليم التقرير في حينه إلى المسؤولين عن الندوة وقُضي الأمر ونامت الفكرة، ولعل ذلك يرجع إلى الظروف السياسية التي سادت المنطقة العربية في السنوات الأخيرة»[11]. إذن فالمشروع جاهز لا يحتاج إلا إلى قرار سياسي إيجابي، خاصة أن الظروف صارت مواتية بعد عودة

---

(10) أنظر: مجلة المسلم المعاصر العدد 1406/407 هـ ص 24-28.

(11) أنظر: الاستشراق والخلفية الفكرية (م.س) ص 131.

العلاقات بين الشقيقات العربية، أو أن يرفع الساسة أيديهم كليّة، ويدعوا الباحثين المخلصين يعملون بجهودهم الخاصة لتحقيق هذا المشروع الحضاري الكبير.

6 ـ تكوين لجنة إعلامية إسلامية، تعمل على إنشاء وكالة إعلام وتثقيف إسلامي خاصة، ومصرف للمعلومات التي تحتاج إليها في أداء رسالتها في مختلف أنحاء العالم.

7 ـ إنشاء إدارة مالية لإعداد ميزانيات هذه الهيئة وتسيير برامجها وتمويل أبحاثها، ورصد الجوائز للمسابقات العلمية في مختلف فروع البحث العلمي. وتتكون أرصدة هذه الهيئة من دعم رسمي دائم من الدول الإسلامية يدفع سنوياً، ومن التبرعات الحرة، وأموال الزكاة، ومن المهم جداً إنشاء مشروعات استثمارية كبرى لتكون المصدر الدائم والقوي لهذه الهيئة، وذلك على نمط ما يفعله مجلس الكنائس العالمي وكثير من المؤسسات والهيئات الدولية.

8 ـ إنشاء إدارة للطباعة والنشر والتوزيع على مستوى عالمي. هذه الإدارة ـ إلى جانب أداء مهمتها الأساسية في إطار الهيئة المقترحة ـ تكون متنفساً لكل الباحثين المسلمين في كل أقطار العالم، ممن لا يجدون سبيلاً لنشر أبحاثهم أو كتبهم لأي سبب من الأسباب. وفي هذا الصدد يشير د. زقزوق[12] إلى مثال واقعي هو المفكر الفرنسي (جارودي) الذي لقي صعوبات في نشر كتاب يفضح فيه ادعاءات الصهيونية بعنوان (ملف إسرائيل بين أحلام وأكاذيب الصهيونية) وذلك بسبب إسلامه، وقد كانت دور النشر الفرنسية تتلقف نتاجه العلمي وتحرص على طبعه ونشره قبل دخوله الإسلام.

ونأتي الآن للحديث عن أولويات البحث العلمي الإسلامي:

نظراً لطبيعة التحديات الحضارية المعاصرة، وسرعة تقدم العلوم وقيمة الوقت، وتعقد الحياة، فهناك أولويات ملحّة أمام الباحثين المسلمين، لا بد أن

---

(12) أنظر: المصدر السابق ص 153.

تؤخذ في الاعتبار، توفيراً للوقت والجهد، وتجنباً للزلل والانحراف وبعثرة الجهود فيما لا يفيد وأهمها:

1 ـ مشروع إصدار دائرة معارف إسلامية[13] جديدة شاملة، بأقلام مسلمين متخصصين ـ بدلاً من الاستمرار في الاعتماد على جهود المستشرقين. هذا المشروع يجب أن يكون بعدة لغات حيّة، إلى جانب اللغة العربية. وهو يختلف من مشروع «موسوعة الرد على المستشرقين» التي يجب قصرها في إطار مناقشة شبهات المستشرقين والمبشرين وتفنيدها. كما يمكن إصدار موسوعات متخصصة أخرى في مجالات الفكر الإسلامي، على أن يكون كل منها تحت إشراف الهيئة العالمية المقترحة.

2 ـ مشروع موسوعة الرد على المستشرقين، وقد سبق الحديث عنها.

3 ـ ترجمة المؤلفات الممتازة المؤلفة بالعربية في مختلف فروع الإسلاميات، التراثية منها والمعاصرة إلى كل اللغات الحيّة، وتتولى هذه المهمة لجان متخصصة متفرغة، تقوم أولاً بالانتقاء، ثم تشرف على الترجمة، ثم تحيلها إلى المراجعة الدقيقة، ثم تأخذ طريقها إلى الطباعة والنشر.

ونظراً لكون المسلمين يُعدون الآن بمئات الملايين في العالم، ولا يكوّن الناطقون منهم بالعربية إلا نسبة (15٪) تقريباً، وتلبية لضرورة تعريف مختلف شعوب الأرض بدستورنا القرآن الكريم من خلال ترجمة معانيه بدقة وأمانة ووضوح إلى جميع اللغات الحيّة، فيلزم الإسراع بإعداد تلك الترجمات تحت إشراف اللجان المتخصصة المذكورة، وذلك لكي نحمي القراء والباحثين من أضرار الترجمات التي قام بها بعض المستشرقين وبثوا خلالها سمومهم. ويمكن وضع خطة واسعة لتوزيع الترجمات بأنواعها في كل أنحاء العالم، وإرسال أعداد منها على سبيل الإهداء لكل الجامعات والمؤسسات العلمية والمنظمات ووسائل الإذاعة والصحافة العالمية.

---

(13) أنظر: المصدر السابق ص 142-143.

4 ـ إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغة الحية، تصحح التصورات المخطئة عن الإسلام، وعن حقيقة الديانات الأخرى السماوية والأرضية، وتعرض الإسلام بأسلوب علمي عصري، وتجاوز العقلية الأوروبية بالمنطق والموضوعية، ويمكننا الإشارة إلى كثير جداً من الشخصيات الإسلامية اللامعة التي تشرفت باعتناق الإسلام وكتبت عن كتابات كثيرة قيمة، مثل السيدة (مريم جميلة) التي تربو كتبها عن عشرين كتاباً غير المقالات والمحاضرات، ومثل المفكر الفرنسي المسلم (جارودي) الذي أكد في محاضراته على ضرورة تعريف أوروبا والغرب عامة بالإسلام الصحيح. ونشير كذلك إلى كثير من المفكرين المسلمين الكبار الذي يكتبون بلغات أجنبية أمثال المرحوم مالك بن نبي، المرحوم د. محمد عبد الله دراز، والدكتور أحمد عروة، والمفكر الكبير وحيد الدين خان، وغيرهم مئات. إن مؤلفات هؤلاء وأمثالهم يمكن طباعتها باستمرار وإخراجها بصورة دقيقة وأنيقة، ثم نشرها بمختلف الوسائل والأساليب الممكنة.

5 ـ حصر المشكلات والقضايا الملحّة الراهنة التي تشغل بال المسلمين، وإصدار دراسات عميقة حولها، وتوزيعها، لتستنير بها الحكومات وهيئات التخطيط المسلمة.

6 ـ توحيد فلسفة التربية والتعليم والمناهج والسلم التعليم والهياكل الإدارية وتسخير الكفاءات المسلمة جميعاً لإيجاد وحدة ثقافة إسلامية الجوهر، عصرية الأسلوب.

تلك هي أهم الأولويات ـ فيما عنّ لي ـ التي ينبغي أن يركز عليها في مجالات الفكر الإسلامي. وهي ضرورات جوهرية لقيام بعث إسلامي عالمي ناضج شامل. ولقد حدد مالك بن نبي شروطاً ثلاثة لذلك البعث الحضاري المؤمل وهي:

«1 ـ أن يعرف المسلم المعاصر نفسه.

2 ـ أن يعرف الآخرين، فلا يتعالى عليهم أو يتجاهل وجودهم.

3 ـ أن يقوم بتعريف الآخرين بنفسه»[14].

هذه الشروط الموجزة الثلاثة هي الإطار العام لتلك الأولويات المقترحة. وما لم ينجح المسلمون في إقناع العالم بأهليتهم لحمل أمانة الإسلام، من خلال تطوير أنفسهم وتطبيق الإسلام متكاملاً على أرض الواقع... فإن جهودهم ستظل فاشلة، وستكون العاقبة وخيمة في العاجلة والآجلة.

وبعد فأرجو أن تكون هذه الملاحظات في محلها، وأن تدفع الباحثين للقيام بدراسة علمية دقيقة في هذا الموضوع، تستند إلى الوثائق والإحصائيات والتقارير الدقيقة. وندعو الله سبحانه أن يوفق المسلمين إلى الوحدة الكاملة، وتحقيق ما قدمته هذه الملاحظات المستعجلة المتواضعة من مقترحات وخطط.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(14) مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي ـ محمد الجفائري ـ الدار العربية للكتاب تونس 1984 ص 200-201.